

علي الطنطاوي

القاضي شُريك



القاضي شُريك

علي الطنطاوي

القاضي شُرَيك

دار الفكر

الرقم الاصطلاحي: ٣-٠٣١-٠٠٣٦,٠٠
الرقم الموضوعي: ٩٢٠
الموضوع: تراجم وسير
العنوان: القاضي شريك
التأليف: علي الطنطاوي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: مطبعة سيكو - بيروت
عدد الصفحات: ٤٠ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.Fikr.com/
E-Mail: Info @Fikr.com

إعادة 1997

الطبعة الثانية

1399 هـ = 1979 م

ط1 1960

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله نحمَدُه ونَستعينُه ونتوبُ إليه ونَستغفره ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا وسَيئات أَعمالنا، اللهمَّ اجعل عملي هذا خالصاً لك، اللهمَ إني أسألك أن تنفعَ بهِ، وأن تثيبني عليهِ، وَصلّ اللهمَ على سيّدِنا محمد معلم الخير وعلى آله وصحبه ومَن تبعهُم بإحسان.

القضاء والقضاة

إذا أردت أن تسأل ما أخلاق أمة ، وما مبلغها من الحضارة ، وما مكانتها بين الأمم ، فاسأل عن حال قضائها ، وعن مكانة قضاتها بين الناس • فالقضاء هو معيار الأخلاق في الأمم ، والقضاء هو مقياس حضارة الشعوب • لا أعني حضارة العلم المادي الذي يضر كما ينفع ، والآلة التي تقتل كما تصلح ، ولكن الحضارة التي يكون بمثلها البشر بشراً ، ويمتازون بها عن حيوانات الحظيرة ، ووحوش الغاب •

والقضاء هو محاولة تحقيق العدالة الإلهية بالوسائل البشرية ، ولولا القضاء لما كان علم ، ولا كانت تجارة ، ولا كانت صناعة ، ولأكل القوي الضعيف ، وعدا بعض الناس على بعض ، وتحكمت الشهوات والمطامع والاهواء ، وعاد الناس الى حياة الهمجية الاولى •

والقضاء الكامل هو الذي اجتمعت له خصال ، بعضها في

القاضي ، وبعض في المتقاضين ، وبعض في الناس ، وبعض في الدولة .

أما الذي في الدولة ، فهو أن تحسن الاختيار ، فلا تختار في القضاء إلا قويا في دينه وخلقه ، قويا في علمه وفهمه ، لا جاهلاً ولا غبياً ، ولا مطعونا عليه ، ولا مشكوكا فيه ، وأن تضمن له بعد ذلك الحرية ، فلا يكون لأحد عليه في حكمه سلطان ، إلا أن يخطىء فيكون من يصلح خطأه ، أو يميل فيكون من يعدل ميله ، وأن تنفذ حكمه وتمضي قضاءه ، فان الإمضاء تتمة القضاء ، ولا خير في حكم لا ينفذ ، وأمر لا يطاع ، وأن تكفل للقاضي معيشة أمثاله أو أعلى منها قليلا ، حتى لا تذله الحاجة ، ولا يحركه الطمع .

وأما الذي في الناس ، فهو أن يُعينوا القضاة على إحقاق الحق ، فلا يشهد شاهد زوراً ، ولا يخبر مخبر كذبا ، ولا يدافع محام عن مبطل ، ولا يقعد أحد عن نصرة محق ، فان لم يكن هذا كله في الناس ، لم ينفع مع فقده صحة القانون ، ولا صلاح القاضي .

وأما الذي في المتقاضين ، فهو أن يكون لهم من أخلاقهم وسلائقهم ، وعاداتهم وأوضاعهم ، وازع من الظلم ، والعدوان ، والاحتيال على أكل أموال الناس بالباطل ، فان القضاء مهما بلغ من السمو والعلاء ، والاستقامة والقوة ، لا يخرج عن كونه حكم بشر ، له الظاهر ، ليس له الشق عن القلوب ، ولا إدراك البواطن .

وأما الــذي في القاضي ، فهــو أن يكون عالماً فلا يقضي بالجهل ، وأن يكون أمينا فلا يحكم إلا بالعــدل ، وأن يكون فقيه النفس ينفذ الى روح القانون ، ويدرك مقاصده ، لا فقيــه الذاكرة ، يقف بفكره عنــد حــدود الالفاظ ، ويحبس نفســه في سور العبارة ، وأن يكون قوي الفراسة ثاقب الفكر ، يميز بحسه المحق من المبطل ، والمظلوم من الظالم ، وأن يكون بعــد ذلك (بل أن يكون قبــل ذلك كله) متين الــدين ، لا يحكم بغير ما أنزل الله ، ولو حيزت له الدنيا ، لأن لذات الدنيا كلهــا لا تخفف عذاب لحظة واحــدة في الآخــرة ، وأن يكون قوي الخلق ، ثابت القلب ، لا تغريــه مغريات المــال ، ولا تغويــه مغويات الجمال ، ولا يقبل رشوة الدرهم والدينار ، ولا رشوة المودة والجاه •

القضاء الاسلامي

ولقــد جمع قضاؤنا هــذا كله ، فكان الاعجوبة في تاريخ القضاء ، لا يشبهه قضاء ، إلا مايحكى عن قضاء بريطانيا اليوم ، والحق أحق أن يقال ، والله أعلم بحقيقة الحال •

والغريب أنه كان لقضاتنا هذه الحرية ، وهذه الاستقامــة ، وهذا الجلال ، على فساد أسلوب الحكم على عهد أكثر خلفــاء بني أمية وبني العباس • وأنها كانت تضرب الاعناق ، وتصــادر الاموال ، في نزوة من أمير ، أو غضبة من سلطان ، وأنــه ليس

للقاضي قوة مادية ، ما له إلا منزلته الروحية ، وهيبته في نفوس الملوك ، وفي قلوب الرعية .

والأمثلة على ذلك تملأ التاريخ ، والشواهد تفوق الحصر ، من أعلام القضاء ، كشريح ، واياس ، وأبي يوسف ، وابن أبي دواد ، ومنذر بن سعيد ، الى من لا يعرف الناس أسماءهم من القضاة ولا يدرون بهم .

وهذا طرف من سيرة قاض واحد من مئات القضاة .

* * *

قاض عالم محدث كان من طبقة الثوري ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، وأولئك الأئمة العلماء العاملين رحمة الله عليهم أجمعين .

قبيلة النخع

لما أذن الله للعرب ، أن يتبوؤوا في الارض مكان السيادة والقيادة ، وحّدهم بمحمد ﷺ بعد أن كانوا مختلفين ، وهداهم به بعد أن كانوا ضالين ، وأخرجهم تحت رايته ليفتحوا الارض بعد أن كانوا منزوين في بواديهم ، منعزلين وراء رمالهم وصحاريهم ، وكان فيمن لبى الدعوة وبذل النفس للدفاع عنها ، قبيلة كريمة من مَذْحِج من اليمن هي (النخع) فشهدت القادسية

مع سعد ، وكان لها فيها بلاء حسن وأثر ظاهر ، ولما انتهت هذه المعركة التي فتح الله بها باب الشرق كله للخير والحق ، أقامت في الكوفة ، تسد هذه الثغرة ، وتكون ردءاً للاسلام فيها ، فأنجبت طائفة من العلماء ، بلغوا الغاية في الفقه ، وكانوا من ينابيع العلم ، ومن أركانه وأعلامه ، منهم الثلاثة العظام : علقمة النخعي ، والاسود النخعي ، وابراهيم النخعي .

في بخارى

ومشى نفر من هذه القبيلة مع الجيش الفاتح ، فقطعوا فارس كلها وخراسان وبلغوا المشرق الاقصى ، فأقاموا فيه ، وكان منهم الحارث بن أوس (جد القاضي الذي أحدثكم عنه) فأقام في بخارى ، وفيها ولد حفيده هذا ، فما أدرك سن التمييز حتى رأى نفسه غريباً بلسانه وبأصله في هذا البلد البعيد ، ولم يكن قد بقي من أهله إلا ابن عم له ، كان يتجر فأخذه معه الى نهر صرصر ، (قرية في سواد بغداد) ، كان فيها عم له في جماعة من قبيلته ، فأنس بلداته[1] ومن كان في سنه ، وكان يصحبهم الى معلم لهم ، يقرؤون عليه ، وكان هذا المعلم صادق الفراسة ، فعني به وجعل يلقنه القرآن حتى تعلق به قلبه ، وجعل يحبب اليه العلم ، ويدفعه الى السفر في طلبه ، وكان جمهرة قومه في الكوفة ، فقال لعمه :

---

(١) اللدات للصبيان والاتراب للبنات .

ـ يا عماه ، الذي تنفقه علي هنا ، أنفقه علي في الكوفة ، أروي بها السنة وأطلب العلم ، وأعرف قومي •

في الكوفة

فأجابه ، فرحل اليها ، فما أقام بها إلا قليلا حتى مات عمه ، وانقطع ما كان يمده به ، فجعل يضرب اللبن ويبيعه ، ليجمع ما يأكل به وما يشتري الدفاتر والطروس ليكتب فيها العلم والحديث •

وجعل يدور على المحدثين الكبار كأبي اسحق السبيعي ، ومنصور بن المعتمر ، وسماك بن حرب ، وعاصم الاحول وأمثالهم ، وهي أسماء ، أما أكثر القراء فيمرون بها لا يجدون فيها أكثر من حروف وألفاظ ، وأما من كان مشتغلا بالحديث ، عارفا برجاله ، واقفاً على طرق الرواية ، فانه يعلم أن هؤلاء وأمثالهم كانوا أوعية العلم، وكانوا حملة أمانته، ولولاهم ماوصلت الينا سنة نبيّنا ، ولا عرفنا شرع ربنا •

محدث كبير

وجعل يكتب ويحفظ ويروي ، وأنفق في ذلك السنين الطوال ، حتى بلغ في الحديث مبلغاً جعل عبد الله بن المبارك يشهد له بأنه أعلم به من سفيان الثوري ، وكان ابن المبارك من تلاميذه ، وكان من تلاميذه وكيع بن الجراح شيخ الشافعي ،

وعبد الرحمن بن مهدي ، وأبو نعيم ، وبشر بن الوليد ، ورجال من هذه الطبقة •

أدمن ثني الركب في مجالس التحديث ، وصرم الليالي الطوال في المراجعة ، وحفظ الألوف المؤلفة من الاحاديث ، وكان من ملازمته لابن اسحق الهمداني أن صلى معه الفجر سبعمئة مرة، وبعد ذلك تصدر للتجديث والرواية ، ولبث على ذلك عمراً ، يقنع من دنياه بعيش العالم ، ينأى بنفسه عن أبواب السلاطين ، وعن موائد المثرين ، حتى أكل أكلة واحدة ذات يوم فحولته عن وجهته وسلكت به غير طريقه •

ازمة قضائية

خلا قضاء الكوفة ، فنشأت أزمة في الدولة ، أزمة من نوع عجيب لا يعرف إلا في تاريخنا ، هي أزمة يكون مثلها كلما خلا منصب من مناصب القضاء ، يهرب العلماء من المنصب ، ويأبونه ، فيضطر الخليفة الى إكراههم على العمل ، وإيذائهم في أجسادهم ، كما أوذي أبو حنيفة وضرب لانه لم يرض أن يتولى القضاء ، فماذا صنع الخليفة ؟

لقد دعا (المهدي) بسفيان الثوري ، حتى أدخل عليه ، فسلم تسليم العامة ولم يسلم عليه بالخلافة ، ولم يؤد التحية الرسمية ، فاحتملها المهدي ، وقال له « مازحاً » :

ـــ تفر ههنا وههنا ، وتظن أننا لا نقدر عليك ، قد قدرنا ، ألا تخاف أن نحكم فيك بهوانا ؟

قال : إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملك عادل يفرق بين الحق والباطل .

قال أحد حاشية السوء : أتدع هذا الجاهل يواجهك بهذا ؟ ألا اضرب عنقه ؟

قال المهدي : اخرس ويلك ، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم ؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة .

فأخذ العهد (أي مرسوم التعيين) فألقاه في دجلة واختفى .

ففتشوا عنه في كل مكان فلم يجدوه .

اكلة

فدعا شريك بن عبد الله ، فقال له :

ـــ اختر إحدى ثلاث : أن تأكل عندي أكلة ، أو أن تؤدب ولدي ، أو أن تلي القضاء ، لا بد من واحدة .

فلما رأى منه الجد ، قال :

ـــ الاكلة أهونها .

فدعاه الى الغداء ، وكان على المائدة لون طريف ، هو المح (صفار البيض) بمصفى السكر ، ودهن العنبر .

فقال الطباخ لما رآه قد أكل منه :

لا يفلح الشيخ بعدها •

وكذلك كان ، فعلم أولادهم ، وولي القضاء لهم ، وتكلم فيه الصالحون ، وهجاه الشاعر بقوله :

تحــرز سفيان وفــر بدينــه وأمسى شريك مرصداً للدراهم

في القضاء

وما اطمأن شريك الى الولاية ، ولا سر بهــا ، ولقد كــان يتهرب منها ويفر بدينه ، حتى اضطر الخليفة أن يوكل به الشرطة ليحرسوه ، لا يحرسونه من الأعداء ، ولا من الخصــوم ، بل يحرسونه لئلا يهرب ، فهل سمعتم أن قاضياً كان يؤتى بــه الى المحكمة (موقوفاً) ؟

وجعل اخوانه يلومونه فيقول : أكرهت على القضــاء • فيقولون له :

ـ هل أكرهت على أخذ الرزق ؟ (أي على قبض الراتب)•

هو وسفيان

ويظهر أن المنصب طاب له (كما يروي الخطيب البغدادي)

فقعد من نفسه ، فلما بلغ سفيان[1] أنه قعد من نفسه من غير اكراه ، جاءه في مجلس فتراءى له ، فلما رآه قام اليه فأعظمه وأكرمه ، وكان بينهما حوار طريف ، فيه تأنيب وفيه نصح وفيه أدب الموعظة ولطف الاشارة . قال شريك :

ـ يا أبا عبد الله ، هل من حاجة ؟

قال : نعم .

قال : ما هي ؟

قال : مسألة .

قال : أوليس عندك من العلم ما يجزئك ؟

قال : أحببت أن أذكرك بها .

قال : قل .

قال : ما تقول في امرأة جاءت فجلست على باب رجل ، ففتح الرجل الباب ، فاحتملها ففجر بها ، من تحد منهما ؟

قال : أحده دونها ، لانها مغصوبة مكرهة .

قال : فإذا جاءت من الغد ، فتزينت وتبخترت ، وجلست على ذلك الباب ، ففتح الرجل الباب ، فرآها فاحتملها ففجر بها ، من تحد منهما ؟

---

(١) سفيان الثوري كان عالم عصره في الحديث وكان المشار اليه في التقى والزهادة : اراده المنصور على القضاء فابى : وهرب الى الحجاز وطلبه المهدي ليوليه القضاء فاختفى : توفي سنة (١٦١) .

قال : أحدّهما جميعا لانها جاءت من نفسها ، وقد عرفت الخبر أمس .

قال : أنت عذرك حيث كان الشرط يحفظونك ، فاليوم أي عذر لك ؟

وانصرف ولم يكلمه[1] .

تكاليف القضاء

وكان للقضاء منغصات ، هي التكاليف الاجتماعية التي لا يكاد ينجو منها القاضي ، من ذلك أن الخيزران جارية المهدي ، وأم موسى الهادي ، وهارون الرشيد ، قدمت الكوفة في طريقها الى الحج ، فخرج القاضي شريك يستقبلها ، ولا أدري أخرج من نفسه ، أم كانت العادة المتبعة ، أن يكون القاضي في استقبال

---

(١) هذا الموقف من سفيان وامثاله ، انما كان الدافع اليه الورع : وخوف الزلل في القضاء ، وكون الصالحين للقضاء يومئذ كثر ، فان لم يجب واحد اجاب غيره وسلم هو ، وليس تولي القضاء ذنباً ، ولا هو كالمثل الذي ضربه له سفيان ، والقول الحق في حكم توليه ما قاله الحنفية ، وهو انه يكون واجباً ، ويكون مستحباً ، ويكون مباحاً، ويكون مكروهاً ، ويكون حراماً . اي انها تعتريه الاحكام الخمسة ، فيكون حراماً ان طلبه من لا يصلح له ، ومكروها ان كان يصلح له وغيره اصلح منه ، ومباحاً ان كان صالحاً وغيره يصلح له ، ومستحباً ان كان هو اصلح له من غيره ، وواجباً ان لم يكن يصلح له غيره .

ذلك لان القضاء ضرورة لا بد منها ، ولذلك جوزوا اخذ الولاية من الغاصب للحكم في ديار الاسلام ولو كان غير مسلم مادام يعين القاضي ويتركه يقضي بالشرع ، لا يتدخل فيه ، لان تعطيل القضاء مضرة اكبر من تلقي الولاية عليه من ظالم او كافر ، والقاعدة انه يرتكب اخف الضررين ، واهون الشرين .

أمثالها ، وأظن أنه خرج من نفسه ، فأبطأت ، فأقام ثلاثا ينتظرها في قرية (شاهي) ، ويبس خبزه فجعل يبله بالماء ويأكله ، فقال فيه العلاء بن المنهال :

فان كان الذي قد قلت حقاً   بأن قد أكرهوك على القضاء

فما لك مُوضِعاً في كل يوم   تَلَقّى من يحج من النساء

مقيم في قرى شاهي ثلاثا   بلا زاد سوى كسر وماء

* * *

لم ينل المنصب من دينه

ولا يحسبن القراء أنه ان انتظرها ثلاثا ، أو عظمها ظاهراً ، حاباها في قضاء ، أو جاراها في حكومةٍ ، ولقد مثل وكيلها أمامه ، فأقام عليه الحق ، حتى جعله عبرة للناس ، وأنا أنقل الخبر كله ، لتروا منه كيف أن القضاء لم يصرف الرجل عن علمه ، وان ضعفت روايته واضطرب حفظه لاشتغاله في القضاء ، ولم يقلبه عن اخوانه ، أو يجعله يبدل معهم أو يغير ، وان الدنيا لم تغره بمغرياتها ، ولم تغره في لذاتها ، وأنه لا يزال بثوبه الواحد لا يملك غيره .

كانَ يشتغل بمذاكرة العلم

قال عمر بن الهياج :

كنت من صحابة شريك ، فأتيته يوماً ، وهـو في منزله ، باكراً ، فخرج الي في فرو ليس تحته قميص ، عليه كساء .

فقلت له : ألا تقوم الى مجلس الحكم ؟

قال : غسلت ثيابي أمس فلم تجف ، فأنا أنتظر جفوفها . اجلس .

فجلست ، فجعلنا نتذاكر باب (العبـد يتزوج بغير إذن مواليه) فقال :

ـ ما تحفظ فيه ؟ ما تقول فيه ؟

قضية وكيل الخيزران

وكانت الخيزران قد وجهت رجلا في الطراز الى الكوفة[1] ، وجاء الوالي عيسى بن موسى الأمر بألا يتعـرض له ، فكان هـذا الرجل حـر التصرف لا يعصى لـه أمـر ، ولا سلطان للامير عليه .

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يفضي الى النخع[2] ومعه جماعة من أصحابه عليه جبة خز وطيلسان ، على برذون فاره ،

---

(١) الطراز : التطريز ، اي ليطرز لها ثيابا في الكوفة .

(٢) اي الى حي قبيلة النخع التي منها القاضي ، وكان لكل قبيلة في الكوفـة والبصرة حي خاص بها .

وإذا رجل بين يديه مكتوف ، فلما مرّ ببيت القاضي ، صاح الرجل :

ـــ واغوثاه ، أنا بالله ثم بالقاضي .

ففتح شريك الباب وخرج ، فدعا به ، فإذا ظهره مكشوف ، وآثار الضرب فيه ، فأقعده الى جنبه وقال له :

ـــ ما شأنك ؟

قال : أنا رجل أطرز ، وأعمل الوشي ، هذه صناعتي ، وكراء مثلي مئة في الشهر ، أخذني هذا منذ أربعة أشهر قسراً ، وحبسني وألزمني بالعمل له بقوتي ، لا يعطيني أجراً ، ولي عيال قد ضاعوا ، فهربت منه فلحقني فضربني وكتفني .

فقال شريك للوكيل :

ـــ قم فاجلس مع خصمك .

قال : أصلحك الله يا أبا عبد الله ، هذا من خدم السيدة ، وهذا أمرها ، فاحبسه حتى يشتغل لها .

قال : ويلك قم فاجلس معه ، كما يقال لك .

فقام فجلس معه .

قال : ما هذه الآثار التي تظهر بظهر هذا الرجل ؟ من أثرها به ؟

قال : أصلح الله القاضي ، انما ضربته أسواطاً بيدي ، وهو يستحق أكثر من هـذا لأنه لم يشتغل للسـيدة ، احبسه حتى يشتغل ، هذا أمر السيدة •

فألقى شـريك رداءه ، وقـام فـدخل داره ، وأخـرج سـوطاً ، وضرب بيـده الى مجـامع ثوب الوكيـل ، وقال للرجل :

ـ اذهب الى أهلك • وجعل يضرب الوكيل •

فهم أعوانه أن يخلصوه ، فقال :

ـ من ها هنا من شباب الحي ؟

فجاءه جماعة فقال :

ـ من وقف من هؤلاء ، فاذهبوا به الى الحبس •

فهربوا جميعـاً ، وتركوه ، وما زال يضربـه ، حتى رأى أن ذلك يكفيـه ، فتركـه فانصرف ، وهو يهـدده بانتقـام السـيدة •

فألقى السوط من يده ، وعاد الى ما كنا فيه من المذاكرة ، كأنه لم يصنع شيئاً ، وقال لي :

عودة الى المذاكرة

ـ يا أبا حفص ما تقول في (العبد يتزوج بغير إذن مواليه)؟

وأراد الوكيل أن يركب برذونه فاستعصى عليه ، ولم يكن معه من يمسك له الركاب ، فجعل يضرب البرذون ، فصاح به شريك :

ـ ارفق به ويلك ، فانه أطوع لله منك .

فمضى ماشياً ، فقال لي شريك :

ـ خذ فيما كنا فيه .

قلت : مالنا ولهذا الآن ؟ قد فعلت والله فعلة ستكون لها عاقبة مكروهة ، مَنْ ضرب وكيل الخيزران فكأنه ضربها ، ومن ضربها فكأنما ضرب الخليفة .

قال : أعزّ أمر الله يعزّك . خذ فيما كنا فيه .

فعدنا نتذاكر في مسألة (العبد يتزوج بلا إذن مواليه) .

وذهب الوكيل الى موسى بن عيسى أمير الكوفة[1] فدخل عليه شاكياً باكياً وكشف له عن ظهره ، فارتاع الوالي وغضب ، وقال :

ـ من فعل بك هذا ؟

قال : شريك .

---

(١) ابوه عيسى بن موسى بن محمد العباسي ، ابن اخي السفاح ، وكان ، عهده ، وكان والي الكوفة ، قبل ابنه موسى .

قال : لا والله ، ما أتعرض لشريك •

قال : سأشكوك الى السيدة •

قال : لا أتعرض لشريك •

فمضى الوكيل الى بغداد فما رجع •

* * *

دعوى على الامير

كان موسى وهو أمير الكوفة ، وهو من كبار أمراء البيت العباسي ، وكان له سلطان الامارة وسلطان النسب ، وكان مع ذلك كله ، يتجنب أن يكون بينه وبين القاضي خلاف ، ويبتعد عن طريقه ، ولا يعارضه في شيء ، ولم ينج مع هذا كله من الخلاف •

ولم يختلفا لان الامير عرض له في قضائه بين الناس ، ولا لانه دخل مؤيداً لمدع أو مدعى عليه ، بل اختلفا من أجل دعوى أقيمت على الامير نفسه •

سبب الدعوى

أراد الامير أن يوسع داره ، وكان الى جنبها بستان نخل لاخوة ورثوه من أبيهم ، وكانوا خمس إخوة وأختاً واحدة ، فاشترى منهم جميعاً إلا الأخت فإنها أبت أن تبيع ، فزادها

في الثمن وضاعفه لها أضعافاً ، وهي تصر على الإباء ، فغاظه أن يفسد عليه أمره حمق هذه المرأة ، وأراد أن يضطرها الى البيع ، وكان بينها وبين حصص اخوتها التي باعوها سياج ، فبعث غلمانه ليلاً فأزالوه .

وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اختلط بنخل اخوتها ، ولم تعد تعرف أرضها من الارض التي باعوها للامير ، فأقبلت تبكي وتلطم ، ولا تدري ماذا تفعل ، وذهبت تكلم الامير فلم يسمع منها ، وقال لها :

ــ خذي ثمن الارض أضعافاً .

فقالت : لا أبيعها .

وانطلقت تتوسل اليه بوجوه البلد ، فما وجدت فيهم مسعفاً ولا معينا ، فقال لها واحد من جيرانها :

ــ أنا أدلك على من يخلص لك حقك .

فاستبشرت وابتهجت وقالت :

ــ ومن هو ؟

قال : القاضي ، اذهبي اليه فنادي ، أنا بالله ثم بالقاضي ، وقصي عليه قصتك .

مجلس الحكم

فذهبت تسأل الناس ، أين قصر القاضي ، فيضحكون منها ويقولون لها :

ـ ومتى كان للقاضي قصر ؟ اطلبيه في المسجد أو في داره .

ودلوها على داره ، فرأت داراً صغيرة من اللبن والطين ، ما على بابها حرس ، وليس حولها جند ، فقالت في نفسها ، أين هذا من قصر الامير ؟ وهمت بالرجوع ، ثم أحبت أن تجرب ، فقرعت الباب تسأل عنه ، فقالت لها امرأته ، هو في مجلس الحكم في المسجد .

فدخلت الى المسجد ، تسأل ، أين القاضي ، فأشاروا اليه ، فرأت رجلا قاعداً على الارض مستنداً الى سارية ليس تحته سرير ، ولا يقوم على رأسه الحرس والعبيد ، وليس معه إلا كاتبه ، وغلامه ، فنظرت اليه من بعيد متعجبة منه ، أهذا الذي يأخذ لها حقها من الامير .

أهذه الدنيا الصغيرة الهزيلة تقوى على دنيا الامير بعظمتها وغناها وقوتها ؟

لم تدر أنه إذا كان مع الامير سحر السلطان والغنى ، والجند والاعوان ، فان مع هذا الرجل القاعد على الارض ، المستند الى السارية ، عصا الشرع التي تلقف هذا السحر كله .

ودنت منه ، فصاحت كما علمها الرجل .

رفع الدعوى

ـ أنا بالله ، ثم بالقاضي •

قال : من ظلمك ؟

قالت : الامير موسى بن عيسى •

قال : فيم ؟ وما دعواك ؟

قالت : كان لي بستان نخل ورثته عن أبي ، وقاسمت إخوتي ، وجعلت بيني وبينهم سياجاً ، فاشترى الامير من إخوتي جميعاً ، وساومني ورغبني فلم أبعه ، فلما كان في هذه الليلة بعث غلمانه فاقتلعوا السياج ، فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً ، واختلط بنخل إخوتي •

فقال القاضي لغلامه : يا غلام ، طينة •

دعوة الامير

وكان من (أصول المحاكمات) يومئذ ، أن (مذكرة التبليغ) يختمها القاضي بخاتمه على طينة ، تقوم مقام الشمع الاحمر اليوم ، ويبعث بها الى المدعى عليه مع المدعي نفسه •

فختم لها ، وأعطاها الورقة وقال لها :

ـ امضي بها الى بابه حتى يحضر معك •

عند الامير

وذهبت بها الى الامير ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، تذكر سطوة الامير وقوته فترتد ، ثم تذكر هيبة القاضي وقضاءه فتتقدم، حتى بلغت الباب ، فتقاعست وأبطأت ، ثم أقبلت تريد الدخول ، فصاح بها الحاجب •

ـ مكانك يا امرأة ، ماذا تريدين ؟

قالت : الامير •

فضحك وقال : ما أنت والامير حتى تجيئيه بلا طلب ولا موعد ؟ ارجعي •

فخافت ورجعت ، ثم تحسست بطاقة القاضي بيدها ، ومدتها اليه على تردد وقالت :

ـ إن معي هذه •

قال : وما هذه يا امرأة ؟

قالت : بطاقة القاضي للامير •

فوثب وقال : تقولين إنها بطاقة القاضي ؟ هاتيها لأراها • فلما رآها قال :

ـ ويحك ، ولم لم تقولي من أول الامر أن معك بطاقة القاضي ؟ ادخلي •

مدير الشرطة في الحبس

فدخلت حتى وصلت الى الامير ، فدفعتها اليه ، فلما قرأها ، أمر بدعوة صاحب الشرطة ، فلما جاءه ، قال :

ـ امض الى شريك ، فقل له ، يا سبحان الله ، ما رأيت أعجب من أمرك ، امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها عليّ .

قال مدير الشرطة : ان الامير لو أرسلني للقاء الاسد في غابة لما هبت ولا ترددت ، ولكني لا أجرؤ على أداء هذه الرسالة الى القاضي ، فإن رأى الامير أن يعفيني فليتفضل .

قال : امض بها ويلك .

فأمر مدير الشرطة غلمانه أن يحملوا له فراشاً ووسادة الى حبس القاضي ، وذهب فأبلغه الرسالة .

فقال القاضي لغلامه : يتدخل في أمر القضاء ؟ خذ بيده فضعه في السجن .

فقال : قد عرفت والله أنك تفعل بي هذا ، فقدمت مايصلحني الى الحبس .

ومضى الغلام يسحب مدير الشرطة حتى وضعه في حبس القاضي .

الحاجب في الحبس

وبلغ الامير الخبر ، فوجه الحاجب اليه ، فقال له :

ـ يقول لك الامير ، هذا رسول ، أي شيء عليه حتى تحبسه .

فذهب الى القاضي فأبلغه مقالة الامير ، فقال القاضي :

ـ وأنت أيضاً ؟ يا غلام • ألحقه بصاحبه •

فذهب به الى الحبس •

وجوه الكوفة في الحبس

فلما صلى الامير العصر ، بعث الى اسحاق بن الصباح وجماعة من وجوه الكوفة ، من أصدقاء شريك ، فقال لهم :

ـ امضوا اليه وأبلغوه السلام ، وأعلموه أنه قد استخف بي وأني لست كالعامة •

فمضوا اليه ، وهو جالس في مسجده بعد العصر ، فدخلوا فأبلغوه الرسالة ، فلما انقضى كلامهم قال لهم :

ـ مالي أراكم جئتموني في غثرة[1] من الناس ، فكلمتموني؟ من ها هنا من فتيان الحي ؟

فاجتمع اليه نفر منهم • فقال لهم :

ـ ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء فيذهب بـه الى الحبس ، لا يبيتون والله إلا فيه •

قالوا : أجادّ أنت ؟

قال : نعم ، حتى لا تعودوا برسالة ظالم •

---

(١) الغثرة : سفلة الناس •

الامير يطلقهم جميعا

فحبسهم ، وبلغ ذلك الامير ، فلم يحتمل هذا التحـدي ونفـد صبره ، فركب بنفسه ليلاً الى الحبس ففتح بابه ، وأخرجهم جميعا .

فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء ، جاء السجان فأخبره ، فدعا بالقمطر (أي حقيبة السجلات) فختمه ووجه به الى منزله ، وقال لغلامه :

ـ الحقني بثقلي (أثاث داري ومتاعي) الى بغداد ، والله ما طلبنا هذا منهم ، ولكن أكرهونا عليه وقد ضمنوا لنا الاعزاز فيه إذا تقلدناه لهم .

توجه القاضي الى بغداد

وركب دابته ، ومضى نحو قنطرة الكوفة ، في طريقه الى بغداد .

وأسرع الناس يخبرون الامير ، فركب بنفسه فلحقه ، وجعل يمشي معه ، يقول له :

ـ يا أبا عبد الله ، تثبت ، انظر ، دع أعواني ، أفتحبس إخوانك ؟ إخوانك تحبسهم ؟

قال نعم ، لانهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه ، ولست براجع حتى يردوا جميعاً الى الحبس ، وإلا مضيت الى أمير المؤمنين ، فاستعفيته مما قلدني •

فأمر موسى بردهم جميعاً الى الحبس ، وهو واقف مكانه ، حتى جاءه السجان فقال :

ــ قد رجعوا الى الحبس •

الامير يمضي مخفورا الى مجلس القضاء

فقال القاضي لغلامه :

ــ خذ بلجامه فقده الى مجلس الحكم •

فسيق الامير مخفوراً أمام القاضي يمر في الشوارع فيراه الناس كلهم ، حتى وصل المسجد ، فجلس القاضي مجلس القضاء وأمر فنودي على باب المسجد :

ــ المرأة المتظلمة من هذا •

فجاءت فأجلسها معه ، فقال الامير :

ــ أنا قد حضرت ، أفلا تطلق من حبستهم ؟

قال : أما الآن فنعم • وأمر باخراجهم من السجن ، وقال للأمير :

المحاكمة والحكم

ــ ما تقول يا رجل فيما تدعيه هذه المرأة ؟

قال : صَدَقَتْ .

قال : أتعيد سياجها وترد ما أخذته منها ؟

قال : نعم .

قال للمرأة : بقي لك شيء تدعينه ؟

قالت : نعم ، بيت حارس البستان ومتاعه .

قال : ما تقول ؟

قال : أرد ذلك كله .

قال : بقي لك شيء ؟

قالت : لا ، وجزاك الله خيراً .

قال : قومي .

ووثب فأخذ بيد موسى وأجلسه في مجلسه ، وقال له :

ــ السلام عليك أيها الامير ، أتأمر بشيء ؟ فضحك وقال :

ــ بأي شيء آمر ؟

قال : ذاك حق الشرع ، وهذا حق الأدب !

* * *

عزة الايمان

تسألون من أين جاءت هذه الهيبة له في نفوس الحكام ، وهذه المنزلة في الناس ؟ جاءته من أنه كان لا يجلس في مجلس الحكم حتى يأكل ويشرب في داره ، ثم يأتي المسجد فيصلي ركعتين ، ثم يخرج رقعة من قمطره فينظر فيها ، ثم يدعو بالخصوم •

فقيل لابنه : نحب أن نعلم ما في هذه الرقعة ، فهل تخرجها الينا ؟

قال : نعم •

وأخرجها اليهم ، فإذا فيها (يا شريك بن عبد الله ، إذا وقف الخصوم بين يديك ، فاذكر موقفك بين يدي الله واذكر مرورك على الصراط) •

من هنا يا أيها القراء جاءته هذه المنزلة وهذه الهيبة • إن من تصور هيبة الله لم يهب فيه أحداً ، ومن خاف الله ، خافه كل شيء •

الاجوبة المسكتة

وكانت له أجوبة عجيبة في جرأتها وفي طرافتها ، وكان إذا خطر على باله الجواب ما يبالي لمن كان الخطاب •

كان عند المهدي يوماً ، فقال المهدي :

ـ كأني أرى رأس زنديق يضرب الساعة .

فحسبه شريك يخوفه ، فقال له :

ـ يا أمير المؤمنين ، إن للزنادقة علامات ، تركهم الجماعات وشربهم القهوات ، وتخلفهم عن الجماعات[1] .

وظاهر أن ذلك تعريضاً منه بالمهدي أو بحاشيته ، فقال المهدي :

ـ يا أبا عبد الله ، لم نعنك بهذا .

★ ★ ★

وضايقه الصيرفي (المحاسب) يوماً في رزقه (راتبه) وقال له :

ـ تطالبنا بهذا المال ، كأنك بعتنا به بزا .

فقال له : لقد بعت به أكثر من البز ، بعت به ديني .

★ ★ ★

وسئل مرة عن رجل أراد أن يقنت قبل الركوع فقنت بعده ، فقال :

ـ هذا رجل أراد أن يخطىء فأصاب .

★ ★ ★

(١) اي عن صلاة الجماعة في المسجد . والقهوات : المسكرات .

وحكم مرة على وكيل عبد الله بن مصعب (الزبيري) فحقد عليه ، والتقيا في بغداد فقال له عبد الله :

ــ ما حكمت على وكيلي بالحق •

قال : ومن أنت ؟

قال : من تعرف ولا تنكر •

قال : لقد أنكرت أشد النكير •

قال : أنا عبد الله بن مصعب •

قال : لا كثير ولا طيب •

قال : وكيف لا تقول لي هذا وأنت تبغض الشيخين (أي أبا بكر وعمر ، يريد من ذلك التشيع) •

قال : والله ما أبغض أباك (أي الزبير) وهو دونهما ، فكيف أبغضهما ؟

* * *

وكان يخاطب كل قوم بلسانهم ، ويجيبهم بمثل مقالتهم • قدم مرة البصرة فأبى أن يحدثهم فسلطوا عليه سفهاءهم وجعلوا يرجمونه بالحجارة وهو في السفينة ، ويقولون :

ــ يا ابن قاتل الحسين ، رحم الله طلحة والزبير •

وهو يقول لهم : يا أبناء الظؤورات (المرضعات) ويا أولاد

السنانيخ (السناخة المنتنة الريح) لا سمعتم مني حـرفاً ، قال لـه ولـده :

ــ ألا تستعدي السلطان عليهم •

قال : ولم ؟ وهل عجزنا عنهم ؟

★ ★ ★

كان يقر بالحق

وكان شريك يتشيع ، والتشيع لعلي إن اقتصر على مجرد التفضيل ، ولم يتعد الى سبّ أحد من الصحابة أو التابعين أو الأئمة المتبعين ، ولم يكن فيه مخالفة في العقائد ، لما كان عليـه سلف هذه الأمة ــ لم يكن فيه كبير بأس •

وقد كان له جليس أموي فذكر شريك يوماً فضائل عليّ ، فقال ذلك الاموي :

ــ نعم الرجل علي •

فغضب شريك وقال :

ــ ألمثل عليّ ، يقال (نعم الرجل) ، ولا يزاد على ذلك ؟

فأمسك عنه الرجل حتى سكت عنه الغضب ، ثم قال :

ــ يا أبا عبد الله ، ألم يقل الله تعالى في الاخبار عن نفسـه (فقـدرنا فنعـم القـادرون) ، وقال في أيوب (إنا وجـدناه

صـــابراً ، نعم العبـــد انه أوّاب) ، وقال في سليمان (ووهبنـــا لداود سليمان ، نعم العبد) أفلا ترضى لعلي بما رضي الله بـــه لنفسه ولانبيائه ؟

فرجع شريك ، وكان يرجع الى الحق إذا رآه ، وقال :

ــ صدقت •

★ ★ ★

عند المهدي

وقد جر عليه تشيعه متاعب ، وعزل من أجله من القضـــاء مرة ، ثم أعيد اليه • وخبر ذلك :

انه كان يبلغ المهدي شيء من تشيعه ، فلما كثر ذلك قال له المهدي يوماً :

ــ ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين •

قال : ولم ؟

قال : لخلافك على الجماعة ، وقولك بالإمامة •

قال : أما الجماعة ، فمن الجماعة أخـذت ديني ، فكيف أخالفهم وهم أصل ديني ؟ وأما الإمامة فما أعرف إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأما تقليدي الحكم بين المسلمين ، فهـــذا شيء أنتم فعلتموه ، فان كان خطأ فاستغفروا الله منه ، وإن كان صوابا فأمسكوا عليه •

فقال له : ما تقول في عليّ بن أبي طالب ؟

قال : ما قال فيه جدك العباس ، وابنه عبد الله .

قال : وما قالا فيه ؟

قال : أما العباس فمات وعليّ عنده أفضل الصحابة ، وأما عبد الله فانه كان يضرب بين يديه بسيفين ، فلو كانت إمامته على جور ، لكان أول من يقعد عنها لعلمه بدين الله ، وفقهه في أحكام الله .

فسكت المهدي وأطرق ولم يجد جوابا حاضراً .

عزله من القضاء

رفعت اليه دعوى على وكيل مؤنسة[1] ، فأجلسه مع خصمه، فجعل يستطيل عليه ، فقال له شريك :

ـ كفّ لا أبا لك .

قال : أتقول لي هذا ، وأنا وكيل مؤنسة ؟

فأمر به فصفع عشر صفعات عقوبة له على انتهاكه حرمة مجلس القضاء . فانصرف فشكاه الى مؤنسة ، فشكته الى المهدي، وكان في نفسه الحذر من شيعيته والموجدة عليه لمقاله ، فعزله .

ولما ورد الامر بعزله جاءه أمير الكوفة موسى يخبره به ،

---

(١) جارية مغنية من جواري المهدي .

ولم يستطع أن يكتم فرحه وشماتته ، فقال له :

ـ ما صنع أمير المؤمنين بأحد ما صنع بك ، عزلك من القضاء •

فقال له شريك ، هم أمراء المؤمنين يعزلون القضاة ، ويخلعون ولاة العهود •

وكان أبوه عيسى بن موسى ولي العهد ، فأجبروه على خلع نفسه •

فقال موسى : ما ظننت أنه مجنون هكذا ،لا يبالي ما يتكلم به ؟

اعادته

على أن المهدي أعاده بعد ذلك الى القضاء ، ولعله تبين له لما زال عنه الغضب ، أنه لا يجد للقضاء مثله ، وبقي الى آخر خلافة المهدي ، ثم ترك القضاء في خلافة الهادي •

وفاته

ومات أيام هارون الرشيد ، سنة (١٧٧) عن اثنين وثمانين سنة ، وكان الرشيد في الحيرة ، فجاء ليصلي عليه بنفسه ، فوجدهم قد صلوا عليه فرجع •

* * *

وبعد فهذه صورة قدمناها للمحاكمات الاسلامية ، وهـذا شاهد على أن القاضي المسلم الذي كان يقعد على بساط المسجد ، يستند الى سارية ، ليس معه إلا غلام يحمل قمطره ، لا قاعة ولا قوس ، ولا زخرف ولا نقوش ، ولا درك ولا شرطـة . هـذا القاضي كان يحكم على الامراء والملوك ، ويقيم الحق على الكبير والصغير ، ويقول حكمت فلا يجد من يقول له ، أبيت أو عصيت، لأنه لم يكن هو الذي يحكم ، بل الشرع ، ولم يكن هو الـذي يقول ، ولكن القرآن ؛ فمن هنا جاءت لقضائنا هـذه المنزلة ، وهذه المكانة .

انه لم يكن تنفيذ قانون ، ولكن تطبيق شرع .

ولم يكن قضاء بشر ، ولكن حكم الله .

يا سادة : إذا أردتم أن تعود لنا تلك الامجاد ، فأعيدوا لنـا ذلك القضاء .

* * *